بجايــة وتلمسـان بيـن الصّراع والتواصل أيّــام الحفصيين والزّيـانـيـين

د./ صالـح بعيـزيق

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية/بتونس

مقدمة :

قامـت علـى أنقـاض الدولـة الموحديـة ثـلاث دول، تأسـست الدولـة الحفـصية سـنة 1229/626 ثم تلاها بعد مدة تأسيس الدولة الزيانية وتسمى دولة بني عبد الواد أيضا سنة 1236/633 ولم تظهـر الدولـة المرينيـة إلا في 1248/646 بعـد الـسيطرة علـى فـاس ولم تتـصب نهائيـا إلا في 1269/668 بعـد الاسـتيلاء علـى آخـر معاقـل الموحـدين مـراكش. اتصف تاريخ العلاقات السياسية بين هذه الدول منذ القرن 13/7 بالمراوحة بين التوافق والصراع الذي قد يبلغ أشده بالمواجهات العسكرية. لكن السلطة لم تكن هي الفاعلة الوحيدة في بناء العلاقات بين المدينتين. فالمجتمع بكل مكوناته الأخرى فاعل أساسي. وقد تؤثر السلطة على مسار العلاقات. لكن في نظرنا نشأة هذه العلاقات مرتبطة بجدلية العلاقة بين طموحات السلطان ومشاغل المجتمع ومصالحه وهذه الجدلية تمكننا من طرح الاشكالية التالية :

هـل أن الـصراع هـو الـذي هـيمن علـى تـاريخ المـدينتين ؟ أم أن التواصـل الحـضاري هـو الـسمة الغالبـة علـى طبيعـة العلاقـات بـين بجايـة وتلمـسان أيـام الحفصيين والزيانيين ؟

I- <u>هيمنة التوتر على العلاقات السياسية</u> :

1- تطور ميزان القوى بين دول المغرب :

يمكن رسم الحالة السياسية في بلاد المغرب حتى نهايـــة القرن 15/9 حسب تطـور مـيزان القـوى والعلاقـات بـين دولـه الـثلاث. وقـد اختلفـت علاقـة تلمسان ببجاية حسب كل طور من هذه الأطوار :

- طور التفوق الحفصي في عهدي أبي زكرياء الأول وأبي عبد الله المستنصر مـن 1229/626 إلى 1277/675 : لم تكـن في هـذه الفـترة بـين تلمـسان وبجايـة علاقات سياسية أو عسكرية ثنائية مباشرة لأن بني عبد الواد كانوا في مواجهة مباشـرة مـع الحفـصيين بتـونس ولأن تلمـسان أصـبحت تحـت وصـاية أبـي زكريـاء

الحفصي منذ 1242/640 غير أن الوالي الساهر على فرض الوصاية هو والي بجاية. أما الوصاية فهي شكل معبر عن علاقة الصراع.

-طور انتعاش دولة بني عبد الواد في ظل اضطراب دولة الحفصيين وو انشغال المرينيين بمشاكلهم من 1277/675 تاريخ وفاة المستنصر الحفصي إلى 1331/732 تاريخ صعود أبي الحسن المريني إلى الحكم. استطاع بنو عبد الواد (أي الزيانيون) تنظيم دولتهم في هذه الفترة، وتمكنوا خاصة من القيام بهجومات ضد بجاية في إطار سياسة توسعية على الحفصيين.

-طور التفوق المريني : بدأ منذ ارتقاء أبي الحسن المريني إلى الحكم سنة 1331/732، وفي عهده استطاع المرينيون الوصول إلى تونس وعادوا إلى مواجهة الإسبان.

2-استراتيجية تلمسان في طور ضعف الحفصيين :

نقل لنا ابن خلدون في كتابه العبر وديوان المبتدا والخبر وصية للسلطان الزياني يغمراسن (1283/681-1236/633) لابنه عثمان الذي تولى الحكم بعده إلى 1303/703[1] هذا نصها :

"أوصى داده يغمراسن لداده عثمان-و داده حرف كناية عن غاية التعظيم بلغتهم- فقال له يا بني إن بني مرين بعد استفحال ملكهم واستيلائهم على الأعمال الغربية وعلى حضرة الخلافة بمراكش لا طاقة لنا بلقائهم إذا جمعوا لوفود مددهم، ولا يمكنني أنا القعود عن لقائهم لمعرة النكوص عن القرن التي أنت بعيد عنها، فإياك واعتماد لقائهم، وعليك اللياذ بالجدران متى دلفوا إليك"

تختزل هذه الوصية سياسة الزيانيين بتلمسان تجاه بني حفص وبني مرين وقد جاءت في آخر عهد يغمراسن في ظروف تميزت من الجانب الحفصي باضطراب الوضع الذي بدأ مع الواثق (1279/678-1277/675) واحتد مع أبي اسحاق ابراهيم (1283/681-1279/678)، وتزامن انتشار الفوضى مع صعود أبي سعيد عثمان الأول الزياني في 1283/681 باستيلاء الدعي ابن أبي عمارة على الحكم من 1283/681 إلى 1284/683. وفي هذه الظروف انفصلت بجاية من سنة 1285/684 إلى 1309/709. بينما في الجانب المريني تركزت الدولة

1 -ابن خلدون، عبد الرحمن، **كتاب العبر وديوان المبتدا و الخبر**، بيروت-دار الكتاب اللبناني 1959، (**العبر**، لاحقا)، ج VII، ص 188-190.

خاصة بعد الاستيلاء على مراكش في 1269/668 في عهد يعقوب بن عبد الحق (1286/685-1258/656).

جاءت فترة الفوضى في الدولة الحفصية بعد فترة قوة تميز بها عهدا ابي زكريا المؤسس وابنه المستنصر. وقد اعترف الزيانيون بتلمسان بتبعيتهم للحفصيين آنذاك. لكن الوصية تبين تغير ميزان القوى لصالح تلمسان أمام الحفصيين بعد وفاة المستنصر في 1277/675 وفي نفس الوقت تبين تفوق المرينيين في بلاد المغرب. لذلك فالوصية لا ترسم فقط استراتيجية تلمسان تجاه الحفصيين بل تجاه المرينيين أيضا. فهي استراتيجية هجومية ضد بني حفص وسياسة دفاعية ومسالمة مع بني مرين.

لعل تلك الظروف التاريخية الجديدة سمحت لتلمسان بالمرور من حالة التبعية لبجاية إلى العمل الهجومي التوسعي. فقد وقع فعلا تطبيق هذه الوصية من قبل عثمان بن يغمراسن إذ أسرع من ناحية إلى عقد السلم مع السلطان المريني يعقوب بن عبد الحق (1286/685-1258/656) وقام من ناحية ثانية بهجومات عسكرية توسعية ضد بجاية سواء أيام انفصالها الأول والثاني أو حين عادت إلى سلطان تونس[1]. وفي الحالتين استهدف الحفصيين لأن القائمين بالانفصال هم من العائلة الحفصية نفسها.

3-قمة التوتر ومراحل الصراع بين تلمسان وبجاية :

عرف الصراع بين بني عبد الواد بتلمسان وبني حفص ببجاية مراحل متقطعة ولكن رغم استراتيجية الهجوم التي اتبعها بنو عبد الواد فإن المعارك انتهت غالبا بانتصار بجاية. حدثت أول الهجومات على بجاية في عهد انفصالها الأول لكنها لم تدم طويلا ولم تشكل خطرا كبيرا إذ أن بني مرين شرعوا في حصارهم لتلمسان سنة 1298/698 الذي تواصل إلى 1307/706 تاريخ وفاة يوسف بن يعقوب[2]. وعاد بنو عبد الواد في عهد سلطانهم أبي حمو موسى الأول (1318/718-1308/707) إلى الهجوم

1 -دام الانفصال الأول لبجاية من 1285/684 إلى 709/ : 1309 وحكمها في تلك الفترة أبو زكرياء بن أبي إسحاق الحفصي، وهو الذي قام بالانفصال، و ابنه ابو البقاء خالد الذي وحّد الدولة الحفصية من جديد، و دام الانفصال الثاني من 1312/712 إلى 1318/718 و حكمهما أبو يحيى أبوبكر الحفصي الذي قام بالانفصال ثم قام هو أيضا بتوحيد الدولة، برنشفيك، روبار، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، تعريب حمادي الساحلي**، جزءان، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988، ج I، ص103-106؛ بعيزيق، صالح، **بجاية في العهد الحفصي، دراسة اقتصادية و اجتماعية**، تونس- منشورات كلية العلوم الإنسانية و الاجتماعية 2006، ص 69-76. .

2 -**العبر**، ج VI، ص 728-729.

على بجاية بين 1313/713 و1315/715 ثم تراجعت قواتهم نتيجة تمرد محمد بن يوسف بن يغمراسن[1]. واستعمل الطرفان في هذه الفترة سفنا حربية أرغونية وميورقية [2] وخلف أبو تاشفين أباه أبا حمو سنة 1319/718 فقضى في هذه السنة على التمرد وفتحت إثر ذلك فترة الصراع الكبرى من 1320/719 إلى 1332/732[3] لأن الظروف السياسية أصبحت لصالح بني عبد الواد إذ انشغل المرينيون من سنة 1310/709 إلى 1340/740 بمشاكل الأندلس[4].

عرفت هذه الفترة مرحلتين :

- مرحلة أولى من 1320/719 إلى 1326/725 تميزت بهجومات زيانية مكثفة ضد بجاية ولكنها غير منظمة كما وقع في الأثناء حصار قسنطينة سنتي 1322/721 و1325/725 وبنوا حصن بكر على وادي الساحل (الصومام حاليا) سنة 1323/722.

- مرحلة ثانية 1326/726- 1332/732 وهي مرحلة جمع القوى وتنظيم الهجومات وتصاعد الصراع. وتمثل أهم حدث في بناء قلعة تيمرزدكت على وادي الساحل من قبل تلمسان ضمت ثلاثة آلاف جندي. [5] وتحصل أبو تاشفين على سفن حربية من ملك أرغون سنة 1330/730[6]. وأصبحت بجاية المحاصرة مهددة

---

1 -المصدر نفسه، ج VI، ص 746، 756.

2 -لنا ثلاثة رسائل من خايم الثاني (1291-1327) مؤرخة كلها في 20 نوفمبر 1315 و تتضمن معلومات عن مساعدة أرغون الحربية و الموجهة بالتوالي إلى أبي يحيى أبي بكر و إلى رؤساء السفن و إلى قنصل أرغون ببجاية. Masia de Ros, A. , La Corona de Aragon y los estadados del Norte de Africa. Politica de Jaime II y Alfonso IV en Egipto, Ifriquia y tremcen, Instituto Espanol de Estudios Mediterrane, Barcelona 1951, doc. 139, 140, 141, p. 426-429. و لنا رسالة أخرى مؤرخة في 26 ماي 1316 تحمل نفس المعلومات، Ibid. , doc. 142, p. 429-431.

3 **-العبر**، ج VI، ص 755-758، 767، 769، 776-780.

4 -تدخل هذه المشاكل في إطار "حروب الاسترداد" La Reconquista التي شرع فيها المسيحيون الإسبان منذ نهاية القرن الحادي عشر، و في سنة 1309/709 احتل الإسبان جبل طارق، فاستنجد سلطان غرناطة بالمرينيين الذين استرجعوه سنة 733 /1333 و لكن السلطان المريني أبو الحسن انهزم هزيمة كبرى سنة 1340/740 أمام ألفونس الحادي عشر، فكانت نهاية تدخلاتهم ضد المسيحيين الإسبان. Encyclopédie de l'Islam, anc. Ed. , t. III, p. 528 .

5 **-العبر**، ، ج VI، ص 768، ج VII، ص 223.

6 **-العبر**، ، ج VI، ص 776-778 ؛

Masia de Ros, A. , La Corona de Aragon…op. cit. , doc. 175, p. 474-475 ; Marçais, G. , La Berbérie musulmane ety l'Orient au moyen âge, Paris-Alger, éd. Montaigne 1946, p. 284 ; Dufourcq, Ch. E. , L'Espagne Catalane et le Maghrib de la bataille=

بالمجاعة. وأخيرا عرف السلطان الحفصي أبو يحيى أبو بكر أين يكمن الحل فعمل على بناء تحالف مع بني مرين، فبعث بسفارة إلى أبي سعيد المريني سنة 729/1329 ليطلب التحالف ضد بني عبد الواد بتلمسان وعززه بـ"زواج سياسي" سنة 731/1331 بين ابنته فاطمة وابن أبي سعيد الأمير أبي الحسن[1]. ويورد لنا القلقشندي رسالة تعبر عن هذا التحالف ويقول فيها خاصة : "أجمعنا ردّه (أي ردّ سلطان تلمسان) وردعه"[2]. فعلا هاجم المرينيون تلمسان فتراجع بنو عبد الواد عن بجاية وتقدمت جيوش السلطان الحفصي أبي بكر نحو قلعة تيمرزدكت ونسفتها سنة 732/1332[3]. ولم يمثل بنو عبد الواد بعد هذا التاريخ خطرا جديا رغم أنهم أعادوا الكرة سنة 767/1366 في عهد الانفصال الثالث لبجاية، غير أنهم انهزموا وتراجعوا، بل إن الخطر سيظهر من المغرب الأقصى أي من المرينيين سواء على بجاية أو تلمسان وذلك بداية من 748/1348[4].

*من المحاولة الهجومية الزيانية الفاشلة على بجاية إلى فرض الولاء على تلمسان من قبل الحفصيين :

استطاع المرينيون السيطرة على المغرب الأوسط وبجاية من 748/1348 إلى سنة 761/1360 ولم يستطيعوا البقاء بإفريقية إذ غادروها في السنة الموالية. استرجع الحفصيون بجاية من المرينيين في 761/1360 لكن أوضاع الدولة مازالت هشة الشيء الذي سمح لأبي عبد الله محمد بن أبي زكرياء واليها السابق من الانفصال بها من 765/1364 إلى 772/1370، وفي هذه الظروف قامت تلمسان بهجوم فاشل على بجاية سنة 767/1366. وهذا الهجوم هو مؤشر على استمرار النزعة التوسعية الزيانية وعلى استمرار الصراع بين السلطة في تلمسان والسلطة في بجاية بقيت متسمة بالتوتر على مدى ما يقرب من قرن ونصف منذ أن فرض أبو زكرياء الحفصي وصايته على تلمسان واعترافها بالتبعية له في 640/1242 وتفويض والي بجاية بالسهر على فرض هذه الوصاية. غير أن ميزان القوى لم يعد لصالح الزيانيين، فمنذ حوالي 760/1359 إلى

=de Las Navas de Tolosa(1212) à l'avènement du Sultan mérinide Abul Hasan (1331), Paris- PUF 1966, p. 41.

1 -**العبر**، ، ج VI، ص 776-778.

.Marçais, G. , La Berbérie musulmane…, op. cit. , p. 284

2 -القلقشندي، أبو العباس أحمد، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، 15 ج، القاهرة، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة و الطباعة و النشر، ج VIII، ص91-92.

3 -**العبر**، ، ج VI، ص 778-780؛ ج VII، ص 225.

4 - Marçais, G. , La Berbérie musulmane…, op. cit, p. 282 ; Ency. de l'Islam, anc. éd. , p. 528.

نهايتها سنة 1554/926 عاشت الدولة الزيانية فترة ضعف تميزت بشدة التنافس على الحكم بين أمرائها بل آل أمرها إلى الاعتراف بالولاء للحفصيين منذ عهد السلطان الحفصي أبي فارس عبد العزيز(1398/796-1434/837).

انصهرت العلاقات السياسية بين المدينتين ضمن العلاقات بين السلطتين الزيانية والحفصية التي وكانت انعكاسا للصراع الذي ميزها منذ البداية أي منذ فرض أبو زكريا الولاء على تلمسان. فالصراع تطور حسب ميزان القوى فأدى بالنيسبة إلى تلمسان إلى تعاقب الولاء والهجوم : ولاء سهرت بجاية على فرضه وهجومات تلمسانية استهدفت لها بجاية.

هل جرهذا الصراع السياسي والعسكري مسار العلاقات الإنسانية والحضارية إلى ضعف التواصل البشري والحضاري ؟

II-التواصل البشري والحضاري :

1-التواصل البشري :

تجمعت العديد من العوامل لتجعل من بجاية وتلمسان مدينتين ذات جاذبية سكانية وذات قدرة استقطابية للسكان.

مدينة تلمسان عريقة، استقطب موقعها الجغرافي وأراضيها الخصبة، العنصر البشري منذ زمن بعيد، ويعود تأسيس حاضرة تلمسان -حسب رواية ابن خلدون- إلى قبيلة بني يفرن الأمازيغية، واشتهرت آنذاك باسم أڤادير. . هذا وقد ارتفع شأن هذه المدينة في عهد المرابطين، وعرفت آنذاك باسم ثاڤرارث. ثم ازدادت أهمتها في عهد الموحدين الذين وسّعوا عمرانها ليشمل ثاڤراراث، وأڤادير، فأنشأوا فيها القصور والفنادق ودارا لصك العملة. . وتحولت مدينة تلمسان إلى عاصمة سياسية للدولة الزيانية التي أسسها يغمراسن سنة 1235م.

أما بجاية فقد كانت عاصمة الحاديين وورثت ذلك المجد وأضاف عليه الحفصيون وقد اتفقت المصادر على أنها كانت أكبر الحواضر الحفصية بعد تونس. عبر العبدري عن إعجابه الشديد بها حين زارها سنة 1290/688 رغم أنه لم يعجب بأغلب المدن، وأضفى عليها جميع نعوت الإعجاب[1]. وقال خالد

1 -وصفها العبدري كما يلي : "مدينة بجاية مبدأ الإتقان و النهاية، وهي مدينة كبيرة حصينة، منيعة، شهيرة، برية، سنية، سرية، وثيقة البنيان، عجيبة الإتقان، رفيعة المباني، غريبة المعاني..."، **الرحلة المغربية**، تـ. محمد الفاسي-الرباط 1968، ص 26.

البلوي الذي مر بها في 1336/736 وفي 1340/740 إنها"حاضرة البحر ونادرة"[1] واعتبرها العمري (أواسط القرن 14/8) "ثانية تونس في الرتبة والحال وجميع المعاملات والأحوال" وأن تونس هي قاعدة الملك" تليها بجاية قاعدة ملك ثانية"[2] وأصبحت بجاية الحفصية أحد الموانى المغربية الكبرى[3] إلى جانب تونس وسبتة وطرابلس وسلا نتيجة للتحولات التي عرفتها هياكلها وعلاقاتها التجارية، وبفضل دورها كمركز لقاء لتجار المجالات التجارية الكبرى : المتوسطي والصحراوي والمغربي.

و تعددت وظائف المدينتين بجاية وتلمسان التي تنشطهما وتجعل منهما قطبين حضريين. فقد كانت كل منهما عاصمة آنذاك بجاية عاصمة الجزء الغربي للدولة الحفصية أو عاصمة لإمارة منفصلة وتلمسان عاصمة الزيانيين. لذلك اختصتا بالوظائف السياسية والادارية والمعالم الحكومية مثل القصبة والقصور الملكية وكانتا قطبين ثقافيين ودينيين، من الأقطاب الإسلامية الهامة تجاوز اشعاعهما النطاق المغربي وشهدت اغلب المصادر بذلك.

هذه الأهمية قد نفهمها أكثر في علاقة المدينتين مع محيطهما وفي علاقة مع حركات الهجرة، لا سيما الهجرة الأندلسية. لكن كيف يمكن أن نفهم الهجرة من بجاية نحو تلمسان ومن تلمسان نحو بجاية والحال أن الإثنتين مستقطبتين وغير منفرتين. يفسر ذلك

أولا، بالحركة العامة التي تجمعهما سواء العلمية أو الاقتصادية التي جعلت منهما حلقتين أساسيتين من حركة العلماء وحركة التجار وأصحاب الصنائع وغيرهم. لم تترك لنا المصادر أمثلة عديدة عن هذه التحركات، غير أن البعض هو دليل على وجود هذه الحركة، والحركة عامة انصهرت المدينتان فيها. - ننطلق من مثال أبي محمد عبد العزيز بن مخلوف، أصله من تلمسان ولد بها سنة 1205/602، انتقل إلى بجاية واستوطنها ودرّس بها وأصبح له بها مسجد ولكن تحركه في حياته لم يكن بين المدينتين فحسب، بل قام بتحركات غير منتظمة في اتجاهات مختلة ودوافعها مختلفة أيضا، فلا يمكن وصفها بالرحلة العلمية : ولادته ونشأته ودراسته الأولى في تلمسان، قراءته ببجاية ثم التّدريس في

---

1 -البلوي (خالد)، **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، جزءان، مطبعة فضالة –المحمدية (المغرب) 1964، ج I ، ص 157.

2 -العمري (ابن فضل الله)، **وصف إفريقية**، ص 7-8 .

3- بعيزيق (صالح)، *المرجع نفسه*، ص 125-355.

تلمسان وبجاية والقضاء مع التدريس في ثلاثة مدن بسكرة وقسنطينة والجزائر حيث توفي سنة 1279/686 [1]. وليس هذا هو المثال الوحيد، نذكر أيضا محمد بن أحمد العجيسي التلمساني من أهل تلمسان ارتحل إلى مكة في رحلة تقليدية للحج والعلم، وفي بلاد المغرب زار بجاية والزاب وبلاد الجريد، ولم يكن ذلك في رحلة منتظمة ومنحصرة في مدة زمنية [2] وإلى هذه التحركات وجد الرحالة الذين قصدوا الخروج في رحلة لغرض ما أو لأغراض متجمعة الحج : طلب العلم، الاستكشاف، السياسية إلخ، ومنهم من مر بتلمسان وبجاية. وبالنسبة لهؤلاء أذكر مثالين من الرحلات المغربية أي في بلاد المغرب هما رحلتا محمد العبدري وعبد الرحمن ابن خلدون اللذان مرا بتلمسان وبجاية. زار العبدري كلا من المدينتين مرتين عند الذهاب في 1298/688 وعند الإياب في 1291/691[3] حسب مسلكين منتظمين تقع عليهما المدينتان. أما ابن خلدون فزياراته للمدينتين متباعدة ولم تلتزم الرحلة المنتظمة بل أحاطت بزياراته أحداث ودوافع سياسية، زار تلمسان في 1352/753 و1370/771 1374/776-1375 وزار بجاية في 1353/754 و1354/755 و1365/766. إن أسماء العلماء والرحالة المتنقلين هنا وهناك عبر بلاد المغرب متعددة سواء مروا بتلمسان أو بجاية أو لم يمروا. إن حركة تنقل هؤلاء دؤوبة وعامة وهي غير منعزلة عن التحركات العامة التي تهم أيضا تحركات التجار بقوافلهم والسكان العاديين المسافرين لغايات مختلفة. وليس أدل على ذلك أن القافلة التجارية كانت في غالب الأحيان تحمل معها العلماء والمسافرين والحجيج وغيرهم. لذلك فهذه الحركة العامة قد تؤدي بالبعض من المتنقلين إلى الاستيطان ولا يمكن أن يشمل الاستيطان العلماء فحسب القادمين من تلمسان نحو بجاية أو من بجاية نحو تلمسان، فكل مسافر حسب أوضاعه قد تتوفر له أسباب الاستيطان، غير أن المصادر لا تركز إلا على أسماء العلماء مثل أبي محمد ابن مخلوف المستوطن لبجاية[4] والقادم من تلمسان أو عمران المشدالي المستوطن لتلمسان والقادم من بجاية[5].

---

1 -الغبريني، أبو العباس أحمد، **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق رابح بونار، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر و التوزيع، 1970، ص 91-92.

2 -ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، الطبعة الأولى، حيدر آباد، الهند، 1348 هـ، ج III، ترجمة رقم 3476، ص 450.

3 -العبدري، محمد، **الرحلة المغربية**، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، جامعة محمد الخامس 1968، تلمسان : ص 10-24، 278، بجاية : ص 26-31، 276، 277.

4 -**عنوان الدراية، ص 91-92.**

5 -حاجيات، عبد الحميد، "الحياة الفكرية في عهد بني زيان"، **مجلة الأصالة**، ع 26، 1975، ص 138.

ثانيا، تفسر الهجرة من تلمسان أو من القبائل المحيطة بها إلى بجاية بعوامل داخلية متمثلة في الثورات والتصدي لها والصراع على الحكم. نذكر من هذا النوع من الهجرات هجرة راشد بن محمد أمير زناتة وأتباعه إلى بجاية في عهد السلطان الزياني ابي زيان محمد الأول (703/1303-707/1308) وفي فترة تميزت بالهجومات العسكرية الزيانية ضد بجاية، فقد تمردوا على السلطة الزيانية في تلمسان ثم فروا ووضعوا أنفسهم في خدمة أميرها الحفصي أبي البقاء خالد (700/1300-709/1309). وانصهروا في البداية مع جنود صنهاجة قبل أن تظهر الصراعات بينهم ويقتل راشد. والمهم هنا أن هؤلاء الزناتيين، حسب بعض الأخبار الواردة في كتاب العبر لابن خلدون، لم يعودوا إلى جهة تلمسان ومكثوا في بجاية والبعض تحول إلى تونس[1]، وهذا يعني أنهم انصهروا تدريجيا في المدينتين. كما فرّ من تلمسان إلى بجاية وتونس بعض الأمراء المتصاهرين مع الأسرة المالكة، مصحوبين بعائلاتهم وأنصارهم، استقر بعضهم وبعضهم تحول إلى المغرب الأقصى[2]. كانت تلمسان هي أيضا تستقبل الفارين من بجاية، لنا مثال أبي زكرياء بن أبي إسحاق الحفصي الذي فر عند صهره السلطان يغمراسن بن زيان حين أصبحت بجاية مهددة من قبل الدعي ابن أبي عمارة بعد واقعة مرماجنة سنة 682/1283[3].

هكذا تلتقي عوامل متعددة وظروف تاريخية مختلفة لتدفع بالعديد للانتقال من تلمسان إلى بجاية والعكس ثم الاستقرار. وفي كل الحالات فإن المتنقل يستوطن المدينة الثانية دون عناء التأقلم في الحياة اليومية لأنه يجد مدينة مماثلة من حيث الأهمية والوسط الحضري والاجتماعي، وحتى بالنسبة إلى الصراعات الاجتماعية أو السياسية فهي أمر معاش في كلتي المدينتين. والنتيجة تمثلت في التمازج البشري بين المدينتين حتي في الفترات المتزامنة مع الحروب الزيانية ضد بجاية الحفصية.

2- التواصل العلمي :

أدت تحركات العلماء إلى ظهور ثلاثة حالات أدت إلى التأثير العلمي المتبادل والتراشح الثقافي.

1- برنشفيك، روبار، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، تعريب حمادي الساحلي**، جزءان، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988، ج II، ص 77-78.
2 -**العبر**، ج III، ص 390، 492؛ برنشفيك، **تاريخ إفريقية**. . . ، مرجع سابق، ج II، ص 78.
3 -العبر، ج VI، ص693؛ ابن القنفذ، أبو العباس، **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تونس، الدار التونسية للنشر، 1968، ص 143 ؛ بعيزيق، صـ، **بجاية في العهد الحفصي**. . . ، مرجع سابق، ص 69.

أولا، وفاة بعض أقطاب العلم في بجاية أو تلمسان أصيل هذه أو تلك لا سيما حينما يبلغ درجة القطبية والولاية الصالحة. فهو يصبح مقصدا للعلماء ومختلف الزوار ويخلق حركية ذات تأثير مباشر على المدينة. أهم مثال هو أبومدين شعيب الذي لم يكن من العهد الزياني والحفصي فقد عاش ببجاية في القرن 12/6 (توفي 594هـ/1198م) ولكن مقامه في تلمسان بموقع العباد ومدرسته الصوفية استمرت بعده، ناهيك أن مقامه جلب لزيارته أعلام الصوفيين وغيرهم من العلماء في الفترة الزيانية – الحفصية مثل سيدي أحمد بن عروس في القرن 14/8.

ثانيا، الزيارات الوقتية لمدة قد تطول أو تقصر لكن دون أن تتخذ طابع الاستيطان، وهذا ما فعله عبد الرحمن ابن خلدون في بجاية وتلمسان حيث حمل لهذه وتلك دروسه ومنهجه وأخذ العلم عن المقري الجد في تلمسان، فقد كان أساتذته أصيلي تونس وفاس ومكناس ومراكش وسبتة وتلمسان وندرومة. جميعهم منحوه " الإجازة العامّة "، أي أنهم أجازوا له بأن ينقل عنهم تعليمهم كلّه.

ثلثا، استقرار بعض علماء بجاية في تلمسان والعكس أثر تاثيرا مباشرا في المناهج العلمية ومناهج التدريس. هكذا كان لنزول عمران المشدالي (1271-1344) بتلمسان وإقامته فيها دورًا بالغًا في بث طريقته في التّعليم في تلمسان امتدادا لمدرسة بجاية التي حرصت على المحافظة على السند في التعليم خلافا للأندلس وفاس اللتين انقطع فيهما سند تعليمهما. كما حاول عمران نشر الطريقة المعتمدة على التحليل والتعليل والمُحاورة والإبتعادها عن أساليب الحفظ والإستظهار. و نلاحظ أن عمران استقر بتلمسان في فترة الصراعات العسكرية الزيانية الحفصية.

3- التواصل الاقتصادي :

توازى التواصل العلمي وتحركات العلماء مع حركة تجارية. هي روابط بنيوية تمثلت في شبكة متكاملة للطرقات التجارية التي تركزت عليها الحركة التجارية البرية وحركة التنقلات البشرية التي تحدثنا عنها. تبين لنا كتب الرحلات والمصادر الجغرافية أن تلمسان وبجاية بأهم محور شرقي-غربي غربي-شرقي جمع بين الطريق الساحلية والطريق الداخلية.

تعيننا المعلومات الواردة في رحلة ابن بطوطة[1] على رسم طريق غربية شرقية من طنجة إلى الإسكندرية. يتوضح المسلك عند سنة 1325/725، إذ خرج من طنجة يوم 2 رجب الأول 725، وهي كالتالي : طنجة-تلمسان-مليانة-الجزائر-بجاية-قسنطينة -بونة-تونس-طريق الساحل-سوسة-صفاقس-قابس-طرابلس-مسلاتة-مسراتة- قصور سرت-الإسكندرية ومنها إلى المشرق.

تجمع الطريق الرابطة بين المغرب والمشرق بين محاذاة الساحل والابتعاد عنه. وإذا قارنا مسلك ابن بطوطة سنة 1325/725 بمسلك العبدري قبله سنة1289/688 لاحظنا أنهما سلكا نفس المسلك تقريبا بداية من تلمسان. فالعبدري مر أيضا من تلمسان- مليانة- الجزائر- بجاية- قسنطينة-بونة- تونس- قابس-طرابلس-مسراتة- سرت ثم الإسكندرية، ولم يختلف الإثنان إلا في بعض المسالك الفرعية.

إنّ الخاصية الأولى لهذه الطريق هي أنها تشكل محورا رئيسيا جمع بين أهم محطات الطريق الساحلية والطريق الداخلية. سمى ابن حوقل (ت 981/371)[2] والبكري (تـ 1094/487)[3] وابن أبي زرع (تـ 1326/726)[4] الجزء الممتد منها في بلاد المغرب بـ "الطريق الجادة" أي السريعة وتحدث عبد الواحد المراكشي عن "طريق السفار" عند ذكره للطريق الرابطة بين بجاية ومراكش والتي احتوت أيضا على بجاية ومليانة وتلمسان[5]. لذلك فابن بطوطة رسم لنا الطريق الأسرع من طنجة إلى الإسكندرية.

تكتمل الصورة إذا عرفنا أن الطريق من تلمسان تتواصل نحو الجنوب لترتبط بسجلماسة إحدى البوابات الكبرى ببلاد المغرب آنذاك نحو بلاد السودان عبر الصحراء، إلى جانب أغمات-مراكش وورجلان وغدامس. ومثل ميناء بجاية نظرا لأهميته مع ميناء وهران الذي كان أقل أهمية، نقطة وصول متميزة لتجار تلمسان للالتقاء بتجار أوروبا المتلهفين على بضائع بلاد السودان خاصة الذهب والعبيد وأيضا بضائع مغربية مختلفة[6]. إن تجار تلمسان أو تجار أوروبا المتعاملين مع تلمسان كانوا

---

1 -بعيزيق، صالح، "رحلة ابن بطوطة والتاريخ الاقتصادي لبلاد المغرب و بلاد السّودان والمشرق في النصف الأول من القرن 8هـ/14م" **المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية**، عدد خاص : أشغال الملتقى الدولي : الرحلة و الرحالة في العالم العربي الإسلامي، تونس أكتوبر 2006، إشراف راضي دغفوس، عدد 139، 2010، ، ص 37-72

2 -ابن حوقل، **صورة الأرض**، ص 6.

3 -البكري، **المسالك والممالك**، ج2، ص739.

4 -ابن أبي زرع، **روض القرطاس**، ص 6.

5 -عبد الواحد المراكشي، **المعجب في أخبار الأندلس و المغرب**، ص 503، 507.

6 بعيزيق، صـ ، **بجاية في العهد الحفصي. . .** ، مرجع سابق، ص 150-178.

في حاجة إلى ميناء ذي أهمية أولى في المغرب الأوسط وهو ميناء بجاية رغم تبعيته السياسية للحفصيين ورغم أن هؤلاء التجار الأوروبيين ركزوا نفس المؤسسات في تلمسان نفسها لخدمة مصالحهم ولتمثيلهم لدى السلطة الزيانية أي الفنادق والقناصلة وقد أكدت لنا الوثائق وجود فنادق جنوة والندقية وأرغون[1].

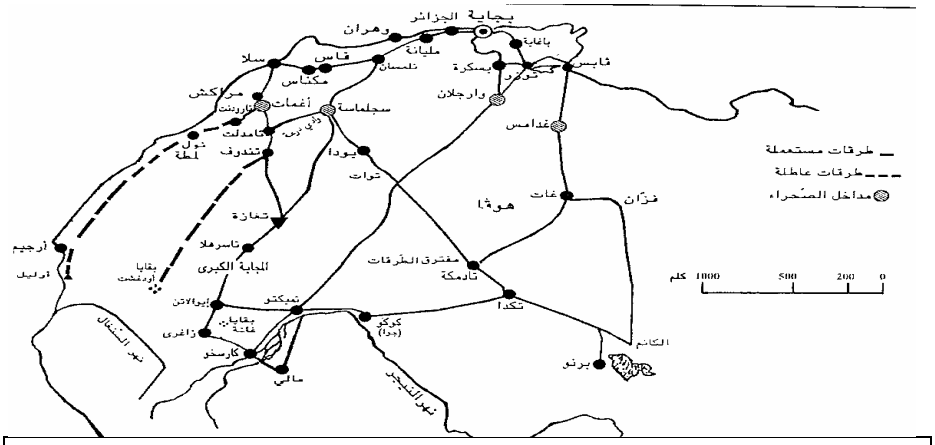

الطرقات الصّحراوية المتصلة ببلاد السودان الغربية والوسطى أيام الزيانيين والحفصيين

المرجع : بعيزيق ص.، بجاية في العهد الحفصي، مرجع سابق، ص 177.

الخاتمة :

تبرز من دراستنا جدلية مصالح السلطة والمجتمع. كانت السلطة السياسية حريصة على تحقيق أهداف توسعية أو تحقيق الهيمنة والتفوق. وقد أثرت هذه الأهداف على مسار العلاقات السياسية، غير أن حركية السكان واستمرارية مصالحهم فرضت التواصل بين المدينتين، التواصل البشري والعلمي والاقتصادي وهذا يعني أن تلك الجدلية أفرزت تفوق التواصل الحضاري واستمراريته على النزاعات المترتبة عن مصالح السلطة الفوقية.

1 -رنشفيك، روبار، **تاريخ إفريقية** . . . ، ج II، ص 431-432.

بيبليوغرافيا :

أولا- باللغة العربية :

1- برنشفيك، روبار، **تاريخ إفريقية في العهد الحفصي، تعريب حمادي الساحلي**، جزءان، بيروت، دار الغرب الإسلامي، 1988.

2- البكري، **المسالك والممالك**، جـ. 2.

3- البلوي (خالد)، **تاج المفرق في تحلية علماء المشرق**، جزءان، مطبعة فضالة- المحمدية، (المغرب)، 1964، جـ. 1.

4- بعيزيق، صالح، "**رحلة ابن بطوطة والتاريخ الاقتصادي لبلاد المغرب وبلاد السّودان والمشرق في النصف الأول من القرن 8هـ/14م**"، **المجلة التونسية للعلوم الاجتماعية**، عدد خاص : أشغال الملتقى الدولي : الرحلة والرحالة في العالم العربي الإسلامي، تونس أكتوبر 2006، إشراف : راضي دغفوس، عدد 139، 2010.

5- بعيزيق، صالح، **بجاية في العهد الحفصي، دراسة اقتصادية واجتماعية**، منشورات كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، تونس، 2006.

6- حاجيات، عبد الحميد، "**الحياة الفكرية في عهد بني زيان**"، **مجلة الأصالة**، ع. 26، 1975.

7- ابن حجر العسقلاني، شهاب الدين، **الدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة**، الطبعة الأولى، حيدر آباد، الهند، 1348 هـ، جـ. III، ترجمة رقم 3476.

8- ابن حوقل، **صورة الأرض**.

9- ابن خلدون، عبد الرحمن، **كتاب العبر وديوان المبتدأ والخبر**، بيروت-دار الكتاب اللبناني 1959، جـ. VII.

10- ابن أبي زرع، **روض القرطاس**.

11- العبدري، محمد، **الرحلة المغربية**، تحقيق محمد الفاسي، الرباط، جامعة محمد الخامس، 1968.

12- العمري (ابن فضل الله)، **وصف إفريقية**.

13- الغبريني أبو العباس أحمد، **عنوان الدراية فيمن عرف من العلماء في المائة السابعة ببجاية**، تحقيق رابح بونار، الجزائر، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، 1970.

14- القلقشندي أبو العباس أحمد، **صبح الأعشى في صناعة الإنشاء**، جـ. 15، القاهرة، المؤسسة المصرية للتأليف والترجمة والطباعة والنشر.

15- ابن القنفذ، أبو العباس، **الفارسية في مبادئ الدولة الحفصية**، تونس، الدار التونسية للنشر، 1968.

16- المراكشي عبد الواحد ، **المعجب في أخبار الأندلس والمغرب**.

ثانيا- باللغة الفرنسية:

1- Dufourcq, Ch. E., L'Espagne Catalane et le Maghrib de la bataille de Las Navas de Tolosa(1212) à l'avènement du Sultan mérinide Abul Hasan (1331), Paris- PUF, 1966.

2- Encyclopédie de l'Islam, anc. Ed. T. III.

3- Marçais, G., La Berbérie musulmane ety l'Orient au moyen âge, Paris-Alger, éd. Montaigne 1946.

4- Masia de Ros A. La Corona de Aragon y los estadados del Norte de Africa, Politica de Jaime II y Alfonso IV en Egipto, Ifriquia y Tlemcen, Instituto Espanol de Estudios Mediterrane, Barcelona 1951, doc. 139.